



الذاكرة الشعبية

قراءة اجتماعية لمصادر الوعي التاريخي المحلي
والمنتج الثقافي في الحياة اليومية للمجتمع السعودي



د. عبدالرحمن بن عبدالله الشقير

عن الثقافة الشعبية والهوية والمجتمع

اتجهت بعض المنظمات الدولية المعنية بالتراث والثقافة والفنون، كاليونسكو، مؤخراً لدعوة الدول لحفظ الثقافة الشعبية غير الملموسة، أو غير المادية، ويقصد بها الموروث الثقافي والفلكلور المختزل في الذاكرة الشعبية ويتم توارثه عبر الأجيال، مثل: الأدب الشعبي والمعارف والفنون والعادات الاجتماعية، بعد أن كانت مهتمة لعقود بالثقافة الشعبية المادية، وذلك بعدما استطاعت العولمة أن تقدم للشعوب نماذج حياة جذابة وخفيفة، هددت بها نماذج الثقافات التقليدية المستقرة لدى الشعوب.

تلقتي موضوعات هذا الكتاب المتنوعة في عنصر مشترك، وهو أن هذه الموضوعات تعدّ ثقافة شعبية وتراثاً غير مادي، وأسهم كثير منها في التحولات الاجتماعية وتغيير القيم في الحياة اليومية⁽¹⁾ عبر الأجيال. وقد حرصت على تتبع الجذور التاريخية لكل موضوع للتعرف على ممارسات المجتمع في إعادة إنتاج ذاته، وقيمه، وأسلوب حياته، باستخدام أدوات وقيم كل عصر يعيشون فيه.

(1) يعد علم اجتماع الحياة اليومية أحد فروع علم اجتماع المعرفة، وهو يبحث في حياة الإنسان العادي والأفكار الموجهة لسلوكه في حياته اليومية المعتادة. وتشير "موسوعة علم الاجتماع" إلى أن مصطلح الدراسات الاجتماعية للحياة اليومية، Sociologies of Everyday Life، يقصد به فروع علم الاجتماع التي تهتم ببحث تنظيم معنى الحياة اليومية، وهو من أنواع الدراسات الكيفية لخبرات الحياة اليومية وتجاربها بأنواعها المتعددة، مثل سلوك المارة في الشارع، والنوم، والمكالمات الهاتفية، وخبرات العمل، والتعامل مع الوقت. جون سكوت وجوردون مارشال، موسوعة علم الاجتماع، ترجمة محمد الجوهري وآخرين، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ط؟، 2011م، ج 2 ص 73.

فالجوهر واحد والشكل متغير، ومن ثم يسهل التعرف على القيم الدخيلة والممارسات الطارئة التي لا تستند إلى أسس عقلانية، ولا تتسق مع التقاليد الاجتماعية.

وتمثل موضوعات هذا الكتاب جزءاً ضئيلاً من رصد الواقع الذي يتلاشى تاريخه، ومن ثمّ فهذه الموضوعات تؤرخ لذاكرة المجتمع. وقد نقلت بعضها من الأجيال السابقة، وبعضها استشهدت به من الروايات الأدبية المحلية، ومصادر الثقافة الشعبية، وتراثها، وفنونها.

موضوعات هذا الكتاب - أيضاً - فلكلور شعبي، وعادات وتقاليد، وموضة، استقيتها من خلال رصد تاريخ الأفكار في الموروث الشعبي، والتحويلات التي تعرضت لها، وهي موضوعات تقع تحت مظلة اجتماعية؛ لأنها تبحث في حياة الإنسان العادي، وآليات إنتاج المعرفة والثقافة عنده، ولماذا اختار هذا النمط من العادات والممارسات ورفض غيره؟ للتعرف على دور المجتمع في فرض سيطرته على الأفراد وتأثيره في وعيهم، ودور الأفراد في تغيير المجتمع، وإعادة ترتيب قيمه، وترسيخ عادات جديدة.

لماذا الثقافة الشعبية؟

أصبحت الثقافة الشعبية وثيقة غير مادية لتاريخ الشعوب، وهي التي تعكس رؤية الإنسان العادي للحياة من حوله وتصوراته للعالم، وهي الثقافة الشعبية التي تقابلها الثقافة الرسمية المدعومة من الدولة. يقول عالم الاجتماع الإيطالي أنتوني غرامشي: «لا يجب التعامل مع الفلكلور كطرفة أو كأمر غريب مثير للعجب، فهو شيء جاد جداً، ويجب التعامل معه بجدية، إنه تصور للعالم وللحياة، وهو خاص ببعض الفئات الاجتماعية، محددة بالمكان والزمان؛ أي أنه خاص بالشعب، من حيث هو مجموع الطبقات الخاضعة. والفلكلور متعدد وشديد التنوع، يقف في تناقض ومعارضة ضد التصورات الرسمية، وضد تصورات الفئات المتعلمة من المجتمع والطبقة الحاكمة، وضد الدولة؛ أي أن

الفلكلور يتناقض مع المجتمع الرسمي بشكل عام، ومن هنا يمكن فهم الفلكلور فحسبُ كانعكاس لشروط حياة الشعب الثقافية»⁽²⁾.

عولمة الثقافة الشعبية

تعد الثقافة، بوصفها نمط حياة يومي، المنتج الذهني للمجتمع الذي يعكس رؤيته للحياة وللعالم، وهي تمثل العادات والتقاليد والأعراف ومجموع السلوكيات المقبولة والمتوارثة، وكثير منها ثقافة «معولمة»، إذا صحت التسمية؛ حيث دخلت إلى المجتمع خلال مئات السنين، فاكتسبت الرسوخ واندمجت في التراث الشعبي، وصارت جزءاً من هوية المجتمع. فلو استعرضنا نمط حياة الآباء والأجداد لوجدنا أنهم يتوارثون تقاليد الضيافة والكرم والفروسية بمنتجات «معولمة»، ليست من زراعة أرضهم، ولا من صنع يديهم؛ فهم يقدمون الأرز للضيوف بوصفه وجبةً أساسيةً ورمزاً للكرم، وهو لا يزرع في بلادنا، ويستقبلون الضيف بالقهوة والشاي يومياً، مع أننا نستوردهما ولا نزرعهما، ونحتفي بالضيف بالبخور والعود، ويكون حاضراً في جميع المناسبات الرسمية، وليس لدينا مزارع لشجر العود، واستخدمنا البنادق في الصيد والحروب قديماً، ونحن لا نصنعها. وإذا أضفنا بعض الرموز الاجتماعية المصنوعة مثل لبس الغترة والشماع، والعباءة بالنسبة للمرأة، فهي أيضاً أقمشة تصمم وتصنع، ثم نستوردها. وفي المقابل نتساءل لماذا استطاعت هذه المستوردات أن تزيح بعض عاداتنا وثقافتنا الشعبية الأصلية، بل تغيبها من ذاكرة المجتمع، وتحل محلها؟ ولماذا تحولت المنتجات الزراعية التي يصنع منها الأكلات الشعبية إلى وجبات ثانوية؟ ولماذا انفصلت الأجيال عن جذورها، ونسي كثير من الناس عادات المجتمع وتقاليده قبل مئة سنة؟

لذلك ينشأ السؤال البدهي: كيف صارت هذه المنتجات الزراعية

(2) غرامشي وقضايا المجتمع المدني، دمشق: دار كنعان للدراسات والنشر، ط1، 1991م، ص210.

والصناعية المعولمة متجذرة في حياتنا اليومية، ومن رموز من عاداتنا وثقافتنا الشعبية التي ندافع عنها وهي دخيلة علينا؟ ثم كيف تقبلها أجدادنا وهم يقاومون كل منتج جديد؟ ويبدو من تحليل التاريخ الاجتماعي أن العادات والثقافات المحلية تعد عادات أصيلة، تعنى بجوهر الأشياء وتعيد إنتاج ذاتها بما يحقق مصالحها العليا، كما أنها تؤكد على أن المجتمع متسامح ويتقبل الآخر، إلا أن أصوات المعارضة هي التي ترتفع برهة من الزمن، ويبقى الصوت الشعبي يمثل خطاباً اجتماعياً وثقافياً صامتاً.

لا شك أن الجواب الحاسم على هذه الأسئلة يتطلب الاهتمام بتاريخ الأفكار العادية في الحياة اليومية، والتعرف على كيفية انتشارها، والتحول التي تعرضت لها عبر الأجيال، ويتطلب - كذلك - كتابة التاريخ الاقتصادي، ورصد بذور التجارة في جزيرة العرب، بوصفها أحد أهم محركات التغيير الاجتماعي، ونشر العادات الجديدة، ونشر الأفكار من خلال استيراد السلع والخدمات وتصديرها. ويمكن العثور على جزء من هذه التجارة في قوافل طرق التجارة التي تجوب جزيرة العرب من كل الاتجاهات محملة بالسلع، وفي العصر الحديث أسهمت «شركة الهند الشرقية»، وهي شركة بريطانية تأسست عام 1600م، و«الشركة الهولندية» التي تأسست عام 1603م، وهما من أعرق الشركات الرأسمالية العالمية التي تأسست في القرن السادس عشر؛ أي قبل خمسمئة سنة، في جلب بضائع غذائية وصناعية جديدة؛ إذ كانتا تشتريان وتصنعان المصنوعات وأدوات الزينة والمنسوجات والمحاصيل الزراعية في البلدان التي تستعمرها بلدانهم، وتسوقها بين الشعوب التي تحتاجها، وما قوافل التجارة التي تخرج من بلدان نجد... للكويت إلا لشراء منتجات هذه الشركات في الغالب ومنتجات تلك البلدان المناسبة لمجتمعنا، ثم تسويقها داخل الجزيرة العربية التي لم تخضع للاستعمار. إضافة إلى القوافل الراسخة منذ القدم عبر طرق اليمن وعمان والعراق والشام، وهذا لا ينفي وجود حالات شراء مباشر ورحلات مستقلة للهند، وتشهد شبكة الطرق التجارية في جزيرة العرب على تنوع مصادر المصنوعات والأغذية بما يحقق الاستقرار الاقتصادي. ويبدو أن

كثيراً من المنتجات الصناعية والزراعية التي شكلت جزءاً مهماً من ثقافة المجتمع قد انغرست في الحياة اليومية على مدى مئات السنين، ثم منحها المجتمع معاني القيم الأصيلة، واكتسبت شرعيتها من خلال الحضور القوي في ذهنية المجتمع، وتداولها عبر الأمثال العامة والشعر الشعبي.

إن أحد أبرز أسباب انسداد طرق الإبداع في الدراسات التاريخية المحلية هو أنها كانت تهتم بالبناءات الكبرى، مثل: السياسة والدين والاقتصاد، على حساب تفاصيل الحياة اليومية الصغيرة. وتحاول هذه الدراسات تقديم نماذج للتراث غير المادي الذي كان له دور في إنتاج المعرفة في الحياة اليومية، بهدف التعرف على جانب مهمش في التاريخ الثقافي والاجتماعي والاقتصادي في المجتمع السعودي.